# التعضيد المعرفي في مقاربة النص القرآني

## تفسير(التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور أنموذجا

د/ محمد حمودي

جامعة مستغانم

ليس من شك في أن المعارف تتفاعل وتتلاقح فيما بينها، فهي تتسم بالشمولية والإحاطة، وكذلك الشأن بالنسبة للمناهج والنظريات والقراءات، فهي تعتدّ بآليات التعالق والتناص والتمثّل والتّوارد، وتتزيّا بزيّ الشّمول والكليانية. فالنّظرية كما يرى ريتشارد رورتي(مزيج من علوم مختلفة يتمّ عصرها في جنس واحد).[1] والنقد الأدبي(ليس سوى خلاصات لعلوم شتىّ مثل النّحو وعلم اللّغة والعروض والصّوتيات والبلاغة وكذلك علم النفس والاجتماع والتّاريخ).[2] وليس الأمر معقودا على العلوم الدنيوية، بل العلوم الدينية أيضا، فأصول الفقه ينتهض(على قواعد كلية تمّ تأليفها من علوم مختلفة هي النحو والبلاغة والمنطق).[3]

على أن الحديث عن المناهج والآليات يستدعي الحديث عن المصطلحات والمفاهيم والمبادئ، فالفكرة هي مخّ العمل على حدّ تعبير ابن المعتز. والمصطلحات مفاتيح العلوم، كما لهج الخوارزمي. وهي(جوهر البحث العلمي المعاصر،ولذلك فهي تنتقل في مجالات علمية متنوعة وتوظف

بكيفيات مختلفة فيها.. وهي إنسانية وشاملة ضاربة جذورها في عمق أرض الفكر البشري قديمه وحديثه رغم الإكراهات التّاريخية والمحيطية والبيولوجية والثقافية).[4] فالمناهج والمصطلحات والنظريات حينما تتضافر تشكّل توليفة إجرائية تمكن الباحث من استغوار البنى العميقة للنصوص،والحفر في تجاويفه للقبض على المكنون فيه، والمخبوء وراء معناه الحرفي.

لقد دعا كثير من الدّارسين بضرورة المزج بين المناهج، بحيث يمكن للباحث أن يستثمر من كلّ منهج فكرة أو مبدأ أو نظرة في مقاربة نص من النصوص الأدبية على تباين أجناسها. فالنصوص تختلف باختلاف خصائصها الفنية، وبداعتها الفنية، وتركيبها الأسلوبي، ومن ثم جاز للقارئ أن يتعامل مع المناهج باعتبارها أدوات تفيد في التحليل والوقوف على المعاني والدلالات الظاهرة منها والخفية على حدّ سواء. على أننا نلفي هذه الدّعوة تتحدّد مشروعيتها في قول محمد مفتاح:(كل نظرية في العلوم الإنسانية والأدبية هي تلفيق بمعنى ما. فالنّظريات اللسانية والسيميوطيقية المحدثة هي توليف من البيولوجيا والمنطق وعلم النفس والإعلاميات،فنظرية كريماص مثلا- كما يقدمها المعجم- معتمدة على اللسانيات البنيوية والتوليدية والأنثروبولوجية والدلالة المعجمية والمنطق والبيولوجيا وهلم جرا).[5] ولعلّ عبد الملك مرتاض هو من الداعين أيضا إلى التركيب المنهجي في قراءة النص، ويرفض كل أشكال مكننة النصوص ومكنكتها، فالمنهج ما هو إلاّ أداة للقراءة، وهذه الأداة يجب أن تتغير بتغير النص، وتغير المواقف، واختلاف الأطوار.[6] وكذلك فعل محمد صادق عفيفي معلنا انتماءه النقدي الصريح:(...أمّا منهجي في

تحليل النصوص فهو مزيج من مناهج متعددة، منها الجمالي والنفسي والتاريخي والأسلوبي، وأرى في الاقتصار على منهج واحد حجبا لقيم نقدية كثيرة مؤثرة في تحليل النصوص).[7]

ثمّة لفيف من دعاة التعضيد المنهجي والمعرفي ممّن حرصوا على اتّساق العناصر المنهجية المشكّل بينها في مناوشة النص ومجابهة مستغلقاته، ونتلمس هذا الحرص في قول عبد الرحمن القعود:(لم أشأ أن ألتزم منهج أو تقاليد أو أفكار مذهب نقدي محدد، لقد قدرت أن أتجوّل في المذاهب النقدية، وبخاصة الحديثة بحكم موضوع الدراسة، هو أكثر عطاء، لم تكن عندي حساسية تجاه أي منهج أو مذهب بقدر ما كان عندي من حرص على تعرف مقولاته وأفكاره والإفادة مما يمكن الإفادة منه. ولهذا وظفت مقولات أسلوبية وبنيوية وسيميائية (سيميولوجية) وتفكيكية وعلم نصيّة، وتأويلية، وجمالية تلقية، كما وظفتُ مقولات من النقد العربي القديم. أي أن ما نهجته هو منهج مركب من عدة مناهج تتّسق جميعها في الأساسات والركائز المعرفية).[8] ونزع نعيم اليافي المنزع نفسه في كتابه "أوهاج الحداثة"[9]، وكذلك فعل عبد الله الغذامي الذي أعلن بشكل واضح موقف من تركيب المناهج والاستفادة منها جميعا:(أنا ناقد ألسني، والألسنية هي علم اللغة، وتحت مظلة علم اللغة تأتيك البنيوية وتأتيك السيميولوجية وتأتيك التشريحية وتأتيك الأسلوبية).[10]

وفي السّنوات القليلة الماضية طالعنا الباحث المغربي جميل حمداوي بمنهاجية قرائية جديدة استقاها من الناقد الفرنسي جان بول روسويبر (*Jean-Paul Resweber*) تُوسم بالمقاربة المتعدّدة التخصصات

(*interdisciplinaire*)، وتستهدف قراءة النص الأدبي في ضوء مجموعة من التخصصات العلمية والمعرفية.

هكذا، سعى النّقاد والدّارسون الغربيون والعرب على حدّ سواء إلى صناعة تركيبة منهجية تروم التَنوُّع في الأدوات،وتتغيّا الآليات القرائية المناسبة لمقاربة النصوص بحسب طبيعة كل منها، وبحسب جنسها الأدبي، وتيماتها، واصطفاء الأدوات الملائمة لكل جزء من أجزائها، أو كل مستوى من مستوياتها المتعددة، ففي تصور البعض، أن أيّ منهج قاصر وحده عن الإحاطة بالمعطيات الكلية للنص الأدبي، وليس التداخل بين مناهج متعددة إلا محاولة لتلبية حاجة أساسية في عملية التحليل الأدبي حيث تتعدد أبعاد النّص ذاتها وتتنوّع وتتطلب مساهمة أكثر من منهج في استقصائها. فاعتماد المنهج المركب يعني في العمق إصغاء وفيا لكلام النص نفسه.[11]

وإذا كان الحداثيون العرب فزعوا إلى الأخذ من كل منهج بطرف في مقاربة النص، فإن السّلف من العرب القدماء أدركوا ذلك مبكّرا، وكأنّهم أصغوا إلى قول الجاحظ:(لم يخلق الله تعالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه)، ومن ثم عوّلوا على تخصّصات معرفية مختلفة في فهم النّص القرآني خاصة والأدبي عامة،كالنحو والصرف والبلاغة وعلم أصول الفقه وهلم جرا... ولعلّ ما ينبي عن ذلك تموقع قراءاتهم في ثلاث مستويات: المستوى اللغوي، والمستوى النحوي، والمستوى الأسلوبي، بالإضافة إلى أن معظم الذين تناولوا النصوص الشعرية القديمة بالتحليل، كانوا علماء لغة، وفقهاء، وأصوليين، وبلاغيين، كما

هو الشّأن مع الأعمال التي شرح فيها أصحابها ديوان أبي الطيب المتنبيّ، وهم يزيدون على الخمسين في رأي، وعلى الأربعين في رأي آخر.[12]

وإذا قلبنا النظر في تفاسير القرآن الكريم، فإننا واجدون أن مذاهب العلماء في تفسيره تنوعت وطرائق تبيان إعجازه تعدّدت، فإلى جانب تمسكهم بالمعارف الأساسية في علم التفسير، إلاّ أن كل واحد منهم نحى المنحى الذي يميل إليه ويرغب فيه وتعمّق فيه، فهناك التفسير اللغوي والنحوي والصرفي والتفسير البلاغي والفقهي والعقدي.[13] ومن بين هؤلاء العلماء على سبيل التمثيل لا الحصر، الزمخشري صاحب "الكشاف"والشوكاني صاحب "فتح القدير"، وابن عطية في كتابه "المحرر الوجيز"، وأبو السعّود في تفسيره، والطاهر ابن عاشور في كتابه "التحرير والتنوير"،الذي نحن فيه بصدد الإشارة إلى العلوم المعرفية التي استثمرها في الكشف عن مقاصد النص القرآني وتبيان إعجازه البياني، وثم تمكّنه من صياغة الحكم الشرعي.

على أننا سنقف ههنا على جملة من العلوم المعرفية التي استعان بها الطاهر بن عاشور في تفسيره للقرآن الكريم، وأولى هذه العلوم النحو الذي خدم النص القرآني خدمة جليلة،فجنّبه اللحن واستنبط عبره أحكاما لغوية ونحوية جديدة. وعليه جاز القول أن القراءات القرآنية أقوى في مجال الاستشهاد من الشعر ومن غيره، ومن ثم فاتخاذها مصدرا للاستشهاد، يثري اللغة، ويزيد من رصيدها، ويجعلها غنية بأساليبها على الدوام.[14]

لقد عوّل الطاهر بن عاشور على علم النحو من أجل الوقوف على الدّلالات الكامنة في النص، ونلفيه في الغالب لا يذكر جميع الوجوه النحوية، وإنما يقتصر على بعضها فقط. ولعلّ النّاظر في تفسيره "التحرير والتنوير" يلفيه يبدأ بالنظام الاسمي ثم ينحدر إلى النظام الفعلي، فالتوجيه النحوي للحرف. وقد تعرض في دراسة الأسماء، إلى[15]:

- الاسم بين الرفع والنصب.
- الاسم بين الرفع والبناء على الفتح.
- الاسم بين النصب والجر.ّ
- الاسم بين الرفع والجرّ.
- الاسم بين التنوين وعدمه.
- الاسم بين الإضافة وعدمها.
- الاسم بين الإفراد والجمع.
- الاسم بين التثنية والجمع.
- الاسم بين الفاعلية والمفعولية.
- اللفظ بين صيغتي الحرف واسم الموصول.
- الضمير بين الإفراد والتثنية.

وأمّا بالنسبة للنّظام الفعلي، فقد وقف عند عدّة مسائل لها وشيجة بالفعل من حيث الزمن،والإسناد والتوكيد وحركة الإعراب، ويمكن رصدها كالآتي[16]:

- الفعل بين صيغتي الأمر والماضي.
- الفعل بين الخطاب والغيبة.

- الفعل بين التوكيد وعدمه.
- الفعل بين المتكلم والغيبة.
- الفعل بين الإسناد إلى نون العظمة وتاء المتكلّم.
- إسناد الفعل إلى نون التوكيد الخفيفة أو الثقيلة.
- الفعل بين الرفع والنصب.
- الفعل بين الرفع والجزم.
- الفعل بين البناء للمعلوم والمجهول.
- الفعل بيت التذكير والتأنيث.
- الفعل بين التمام والنقصان.

وإذا تعلّق الأمر بالتّوجيه النّحوي للحروف، فإنّه تطرّق إلى:

- همزة إنَّ بين الفتح والكسر.
- همزة أَنْ بين الفتح والكسر.
- اللاّم بين القسم والتعليل.

هذا وقد اتّكأ الإمام الطّاهر بن عاشور على علم الصّرف في فهمه للنّص القرآني، وتوجيه القراءات، متوقّفا عند الكثير من المسائل التي لها علاقة ببنية الأسماء والأفعال وتحولاتها، باعتبار هذا العلم يصون الكلمة العربية من الخطأ[17]،ويحفظ ألسنة أهلها من اللّحن والعيّ، وعلى هذا الأساس، كان عامة أهل العربية أتمّ حاجة، بهم إليه أشدّ فاقة، لأنّه ميزان العربية[18]، وله الأثر البالغ في فهم أساليبها[19].

ولعلّ من جملة القضايا الصرفية التي أوردها ابن عاشور في هذا الصدد ما يأتي[20]:

- الاسم بين جمع القلّة والكثرة.
- الاسم بين صيغتي اسم الفاعل والمبالغة.
- اللفظ بين الجمع واسم الجمع.
- اللفظ بين الاسم واسم المصدر.
- القلب المكاني: وهو تقديم بعض حروف الكلمة على بعض.
- اللفظ بين اسم الجمع والمصدر.
- اللفظ بين صيغتي اسم المكان واسم المفعول.
- الفعل بين المجرّد والمزيد.
- الفكّ والإدغام.
- الاسم بين الصّفة المشبّهة والمصدر.
- الاسم بين الصفة المشبهة واسم الفاعل.
- التخفيف والتشديد في الاسم.
- التخفيف والتشديد في الحرف.
- همزة القطع والوصل.
- الاسم بين القصر والمد.
- اللفظ بين صيغتي المصدر الميمي واسم الزمان.

وثمّة قضايا صرفية أخرى أولاها الطاهر بن عاشور العناية في قراءته للنص القرآني لا يسع المجال لذكرها ههنا في هذا المقام، ويمكن للقارئ استنباطها من تفسيره التحرير والتنوير.

لقد أدرك الطاهر بن عاشور أن اللغة العربية والبلاغة، هما الآلتان الأساسيتان في تذوق النص القرآني، والإلمام بفحوى خطابه، ومعرفة أسرار بيانه،[21] بوصفه ظاهرة أسلوبية عجيبة، وبما يحتويه من خصائص بيانية جمالية بديعة منقطعة النظير، تُبين عن مكمن الإعجاز فيه. ومن بين الظواهر البلاغية التي توقف عندها الطاهر بن عاشور في قراءته للنص القرآني العظيم، والتي تكشف عن أفانين البلاغة العربية، وجمالية الأداء البلاغي، هي[22]:

- الإيجاز والإطناب.
- الخبر والإنشاء.
- الفصل والوصل.
- القصر وأسراره البلاغية.
- الالتفات.
- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة.
- المجاز العقلي.
- التشبيه البلاغي.
- خروج الكلام عن مقتضى الظاهر.
- البديع(المحسنات اللفظية والمعنوية).

هكذا،أسهمت علوم معرفية مختلفة في توجيه القراءات لدى الطاهر بن عاشور، فمنهم من عُني بالنحو والإعراب واللغة،ومنهم من عُني بالنحو والبلاغة معا،ومنهم من عُني بأحكام القرآن، ومن هم من عُني بشيء من الاشتقاق.[23] وهذا كله لاستنباط الأحكام الشرعية، والكشف عن مظاهر الإعجاز.

## مصادر ومراجع البحث


1. عبد الله الغذامي، ثقافة الأسئلة، ط2، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993، ص21.
2. نفسه، ص23
3. نفسه، ص23.
4. محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، نحو منهاجية شمولية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، 1996، ص06.
5. عبد الله الغذامي، ثقافة الأسئلة، ص26- 27.
6. ينظر: عبد الملك مرتاض، نظام الخطاب القرآني، تحليل سيمائي مركب لسورة الرحمن، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2001، ص23.
7. محمد الصادق عفيفي، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ط2، مكتبة الرشاد/ دار الفكر، 1971، ص72.
8. عبد الرحمن محمد القعود، الإبهام في شعر الحداثة، عالم المعرفة، الكويت، مارس2002، ص13.
9. نعيم اليافي، أوهاج الحداثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1993، ص156.
10. جهاد فاضل، أسئلة النقد (محاورة مع عبد الله الغذامي)، الدار العربية للكتاب، تونس- ليبيا، ص210.
11. سامي سويدان، أبحاث في النص الروائي، ص18.
12. عبد الملك مرتاض، نظرية القراءة، تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003، ص79.
13. رانية جهاد إسماعيل الشوبكي، الطاهر بن عاشور وجهوده البلاغية في ضوء تفسيره "التحرير والتنوير" "المعاني والبديع" (مخطوط ماجستير)، الجامعة الإسلامية ، غزة، فلسطين، 2009، ص02.

14. عبد العال سالم مكرم، الإمام محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره "التحرير والتنوير، ص107.
15. ينظر: محمد بن سعد القرني، الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير والتنوير، (مخطوط ماجستير)، جامعة أم القرى، السعودية، 1427 هـ، ص125 وما بعدها.
16. نفسه، ص134 وما بعدها.
17. ينظر: الشيخ أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، ص17.
18. ينظر: ابن جني، المنصف، ط1، تح: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، دار إحياء التراث القديم، القاهرة، مصر، 1954.
19. فخر الدين قباوة، تصريف الأسماء والأفعال، ط2، بيروت، لبنان، 1988، ص22.
20. ينظر: محمد بن سعد القرني، الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير والتنوير، ص145 وما بعدها.
21. ينظر: رانية جهاد إسماعيل الشوبكي، الطاهر بن عاشور وجهوده البلاغية في ضوء تفسيره "التحرير والتنوير"، ص2.
22. الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير والتنوير، ص163 وما بعدها.
23. عبد الملك مرتاض، نظام القرآني - تحليل سيمائي مركب لسورة الرحمن، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع،2001، ص12.